قصة مثل

- ٤ -

أول الطرح نطح

بقلم الدكتور

محمد ماهر قابيل

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة : ١١ شارع جواد حسنى

ص . ب ١٣٠ القاهرة - ت : ٣٩٢٥٥٢٣

٨١٨ محمد ماهر قابيل.
م ح أ و أول الطرح نطح / بقلم محمد ماهر قابيل.– القاهرة : دار الفكر العربى ؛ إيداع ١٩٩١.
١٦ ص : مص ؛ ٢٤ سم .– ([سلسلة] قصة مثل ؛ ٤)
تدمك : ١ – ٠٥٠٨ – ١٠ – ٩٧٧.
١– الأمثال العامية العربية. أ– العنوان. ب – السلسلة.

سيطر المال على عقل جابر، وتمنى أن يصبح به من علية القوم.

كان جابر فلاحا ساذجا يستأجر قطعة صغيرة من الأرض. وكان نحيفا قصير القامة، رث الثياب، ذا مشية مميزة، يسير كأنه يحجل، أصلع الرأس إلا من شعيرات قليلة على الجوانب الثلاثة، معتل الصحة، حافى القدمين فى أغلب الأحيان.

ولكنه مع ذلك كان متزوجا من امرأة أطول منه قامة، وأكثر امتلاء،

تعنى بنظافة جسدها وثيابها، وتتعطر بتلك العطور الرخيصة التى تبتاعها الفلاحات من السوق أو من الباعة الجائلين، وتبدو بوجهها المستدير المشرق كزهرة متفتحة من الزهور البرية التى تنمو على حواف الترع.

كان اسمها مباركة. وربما كان حريا بهذا الاسم أن يتغير إلى اسم آخر أنيق مثل نادية أو سامية لو أنها ولدت لأب متيسر الحال. ولكن للقدر دائما تصاريفه وأحكامه.

وكانت مباركة على ملاحتها راضية قانعة بما قسم لها: بجابر، وبالفقر. وكانا لديها رفيقين لا يفارقانها. ولكنها كانت سببا فى حلم الثراء الذى تملك من زوجها حتى أفسد عليه حياته البسيطة. فكان يتعجل الوصول إلى المال بأية وسيلة حتى يعوض به النقص الذى يحسه أمامها.

ولم يكن ذلك مطلبا سهل المنال لشخص مثله. فلم يكن له من العقل وسعة الأفق ما يعينه على تلمس السبل الموصلة إلى النقود. فحتى السرقة- والعياذ بالله- تقتضى من مهارات الذكاء والخفة وسرعة البديهة وقوة الأعصاب ما لا يتوفر لجابر.

لكن الأمل ما برح يراوده، ويعاوده، ويدور حوله كذبابة لحوح. فلم يكن من الممكن مهما بدت الأبواب موصدة أن يثوب إلى رشده. ولم يكن له رشد من الأصل حتى يثوب إليه.

وظل جابر يجرب.. ويجرب.

جرب زراعة القطن. ولم لا؟ أليس هو الذهب الأبيض الذى يتغنى به الصبية والنسوة عند جنيه، والذى ينتظره الفلاحون حتى يدفعوا المهور، ويزوجوا البنات؟

لكن فأل جابر خاب. فلم تكن قطعة الأرض الصغيرة التى يزرعها لتحقق له العائد

الذى تمناه، وأسقط فى يده. فعاد إلى بيته حزينا مكتئبا يعيد حساباته، ويفكر، ويدبر، ويقدر، ويقرر.

وجرب زراعة القمح. فما أن بدت سنابله مشرئبة على سوقها حتى طفق يمضى وقته فى تأملها مستبشرا مزهوا. فكأنها فى عينيه الذهب الذى يتطلع إليه باصفرارها. ومن دقيق القمح يصنع خبز يستغنى به مثل جابر لو ناله عن الإدام. فهوخبز شهى لا يحتاج معه إلى جبن أو ملح. كما أن ثمن القمح فى ارتفاع. هكذا فكر جابر. حتى خطر بباله أن يطحن القمح كله، وأن تخبزه امرأته لييبعه خبزا فيكون ربحه أكبر. لكن مباركة أفهمته صعوبة ذلك. فاكتفى ببيع القمح. وكان عائده أقل من عائد القطن لسوء الحظ.

تألم جابر حتى أرهقه الألم. وواسته زوجه حتى تمالك نفسه، وعاد إلى محاولاته. فجرب زراعة الذرة. ومن الذرة يصنع خبز أقل جودة من خبز القمح. لكن جابر كان قد سمع عن صنف من الذرة يعطى محصولا ضخما يضاعف له الكسب ضعفين. وقد فعل. فجاء بهذا الصنف الممتاز، ومضى به إلى مقام المتوكل فطاف حوله وهو يحمل الذرة ملتمسا البركة. ثم إلى الحقل فزرع وروى وسمد وعنى عناية المستميت حتى حصد. وقد حسن حظه هذه المرة. فجاء المحصول وفيرا كما أراد. ولكن.. ما أبعده عن تحقيق حلم الثراء.

تنفس جابر الصعداء. وأغراه التوفيق الضئيل الذى أصابه بالمثابرة على طريق الهدف. فجرب زراعة الشعير. إنه طعام البهائم. ولكن طموح جابر يرى ما هو أبعد. فقد سمع أن من الشعير يصنع شراب مرتفع الثمن. يقولون إنه حرام. ولكن عقل جابر قد أغلق على سعاره. فلم يعد يهتم بحرام أو حلال. وكتم الفكرة عن زوجه حتى لا تقاومه. فلما آن الأوان، وجد أنه لا يستطيع، وإن استطاع فلن يبيع. لأن الناس من حوله لا يشترون مثل هذا الشراب.

وأكلت البهائم شعير جابر. وجرب زراعة الفول. وأقسم على امرأته أن تبيعه ناضجا للآكلين فبرت بقسمه. وكانت تحفظ له النقود فى علبة حتى يعود فيعدها لاهثا، ويسرع بإخفائها حتى نفد الفول. فعد جابر نقوده، ووجد أنه كان يسعى إلى سراب.

وزرع جابر البرسيم. وكان يبيعه بالقيراط. لكن دخله من البرسيم أحبطه.

ثم زرع الفلفل، فأثمر ملونا زاهيا . منه الأخضر، ومنه الأحمر، ومنه الذى يجمع لونين فى ثمرة واحدة. ولم يأمن جابر على فلفله تاجرا إن لم يخن فإنه سيذهب ببعض الربح على الأقل. بل حمل إلى السوق ميزانا استعاره، وباع محصوله للمستهلك مباشرة، مفترشا الأرض، مناديا على بضاعته. ولكن أمل الثروة ظل بعيد المنال.

كان جابر أشبه بعداء فى سباق لا ينتهى. كان يسابق طمعه وجشعه فلا يسبقهما، فيزداد إصرارا واستماتة. وهكذا جرب زراعة القصب. وباعه للصفار. ثم جرب زراعة الطماطم، وحملها بدورها مع الميزان إلى السوق. فافترش، وباع، ونادى. وتفنن فى نداءاته. فكان منها ما يشير فيه إلى تذبذب أسعار الطماطم، فيصفها بالمجنونة قائلا:



- قرب من المجنونة.

ياعم يا أكال.

غالية لكن مضمونة.

وأكلها موال.

قرب من الجواهر.

وقل لى: هات ياخال.

من زرع يدى حلوة.

حملها ياجمّال.

وكان منها أيضا ما يصيح به متقافزا مثل:

- بعناها بالخسارة.

والأمر للخلاق.

ورجعنا بالعبارة.

رزقى على الرزاق.

وجاء إلى جابر ابن عمته برهان الشامى قائلا:

- اسمع يا جابر. عليك بزراعة البطاطس.

قال جابر باهتمام:

- لماذا يابرهان؟

أجاب برهان مشجعا:

- جرب وسترى.

وجرب جابر البطاطس، وجرب الباذنجان، وباعهما بنفسه. لكنه لم يصل إلى غرضه.
وذات ليلة، قال لامرأته:

- اسمعى يامباركة: لن ينفعنا إلا زراعة الفاكهة.

ووجمت مباركة قائلة:

- الفاكهة مرة واحدة.

تساءل جابر مستنكرا تحفظها:

- ولم لا؟

قالت متوجسة:

- وهل تقدر على زراعة الفاكهة؟

أجاب مزمجرا:

- وأزرع الذى لا يزرع يا مباركة. أتستقليننى؟

ردت مهدئة:

- حاشا لله ياجابر. لكن زراعة الفاكهة تحتاج إلى خبرة.



قال معبرا بذراعيه عن توتره:

- نتعلم.

استطردت قائلة:

- وتكاليف.. وياعالم.

قال وهو يقف منهيا الحوار:

- ندبرها .. هى كلمة وقلتها: نزرع فاكهة.

سكتت مباركة مفوضة أمرها إلى الله. وجرب زوجها زراعة الفاكهة. ففشل فيها فشلا ذريعا، وفقد ما كان قد ادخره من مال قليل، وازداد ضيقه بفقره وخيبته.

* * *

وذات يوم، ذهب جابر إلى برهان ابن عمته زائرا، فوجد عنده اثنين من أصدقائه هما: صالح الحلينى وعلى بن نويهى. ورحب به برهان قائلا:

- خطوة عزيزة. أين أنت يارجل؟

أجاب جابر متثاقلا:

- أجرى على رزقى يابرهان.

قال صالح مداعبا:

- تجرى يا ابن آدم جرى الوحوش.

قال جابر مشيحا بيده:

- لا وحوش ولا جحوش. لا جرى ينفع، ولا مشى يشفع.

لا حلال يسد، ولا حرام يمد.

أدرك الرجال مدى هم جابر، فقال على فى قلق:

- خير ياجابر؟

رد جابر بصوت منخفض:

- ومن أين يأتى الخير؟

قال صالح مواصلا المداعبة:

- زرعتها بلح الشام، طلعت عنب اليمن؟

انفجر جابر صائحا:

- زرعتها .. والله العظيم زرعتها . زرعت القطن والقمح والذرة والشعير والفول والبرسيم والفلفل والقصب والطماطم والبطاطس والباذنجان والفاكهة. لكن المنحوس منحوس.

قال برهان مشفقا:

- مرة تصيب، ومرة تخيب. حال الدنيا يا جابر.

تذمر جابر قائلا فى لهجة الحاسد:

- وغيرنا يصيبها من غير حساب.

قال على فى نبرة رضاء:

- سبحان العاطى الوهاب.

وأيده صالح قائلا:

- يارجل: احمد الله.. ولا تكفر. هو مقسم الأرزاق. كله بأمره. حر فى ملكه.

قال جابر:

- ونعم بالله. لكن ربنا أمرنا بالسعى.

قال برهان:

- وقد سعيت يا أخى. وأخذت نصيبك. اشكر الله يزيدك من فضله. لا حول ولا قوة إلا بالله.

انتفض جابر وهو يقذف الكلمات مشتعلة من فمه:

– أسـاوى الناس يا عـالم. الناس تعـيش، وتأكل الشـهـد، وتلبس الحـرير، وتسكن القصور، وتركب الخيل. ونحن نشقى ونكدح، ونظل فى قاع الدنيا.

قال على فى أسى:

– اتق الله يا جابر. ربنا أعطاهم.

قال جابر معاندا:

– الرزق يحب الخفة.

كان حلم الغنى قد جثم على مخه، فلم يعد يطيق فيه مخالفة أو مراجعة.

* * *

وشاعت الحكاية فى القرية كلها، وتندر بها الناس، ولاحقه الصبية بالسخرية. فكانوا يسيرون خلفه مرددين:

– يا جابر ياشاطر.

ياصاحب القناطر.

ياعابد الفلوس :

المال عليك يدوس.

يازارع الشعير :

هم الذهب كبير.

روى بدمه الفول.

والناس عليه تقول:

يابائع البرسيم.

الحمل بالمليم.

وزاده الاستهزاء إصرارا على هدفه. لكنه لم يهتد إلى وسيلة مناسبة. وأراد الصدّيق العريض- وكان من الأشقياء المعروفين- أن يعبث بهذا الأبله. فجاءه زائرا، وقال له:

– مـاذا تسـاوى الدنيـا بغـيـر أن نعيش؟ وكيف نعيش إلا بالمال؟ المال زينة الحـيـاة الدنيا.

وتأثر جابر بحديث ضيفه، فقال:

– أى والله ياصدّيق. لاقيمة للحياة بغير المال. وقد سلكت إليه مسلك العمل، فلم أنل إلا الفتات.

قال الصدّيق فى خبث:

– إنك أخطأت الطريق إلى غايتك.

قال جابر متعجبا:

– لم يبق إلا أن أسرق أو أنصب.

قال الصدّيق مصطنعا الخلق:

– مـعـاذ الله يا أخى. أنت لست أهل ذلك. أقـصـد أنك لم تبـذل جـهـدك فى مـوضـعـه الصحيح الذى يقربك مما تريد.

هتف جابر فى لهفة:

– كيف؟

أجاب الصدّيق فى دهاء:

– لأنك زرعت الزرع فى أرضك.

قال جابر ساخرا:

– وهل تريدنى أن أزرع فى أرض غيرى؟

رد الشقى:

– بل تزرع فى أرضك، ولكن لا تزرع الزرع!

تساءل جابر فى دهشة:

– وماذا أزرع يا صدّيق؟

أجاب الماكر بوجه جاد:

– تزرع الحيوانات!

حدق جابر فى صاحبه مذهولا، ثم سأله:

– وهل تزرع الحيوانات أيضا؟

قال الصدّيق بنبرة الواثق:

– هذا هو ما يؤخرك. ألا تعلم أنها تزرع، وتعود على زارعها بالكسب الوفير؟

جرب زراعة الماعز.

قال جابر كمن أصابه مس:

– ياللخبل! زراعة الماعز. ولماذا الماعز بالذات؟

قال الصدّيق يستفزه:

– يجب أن تبدأ بداية متواضعة، على قدر طاقتك. ليس من الحكمة أن تبدأ مباشرة بزراعة الضأن. فهذا من شأن كبار الزراع، والوجهاء.

غضب جابر، وقال:

– وأنا لست أقل من أحد. أنا رجل وابن رجل. والله لأزرعن الجاموس مباشرة.

تظاهر الصدّيق بالفزع قائلا:

– الجاموس مرة واحدة. يا رجل: ابدأ بالحمير.

قال جابر بازدراء:

– الحمير.

واصل الصدّيق مخفيا سروره:

- أو حتى بالبقر.

قال جابر بأنفة:

- وما رأيك فى الجمال؟

أجاب الصدّيق متمهلا:

- الجمال.. الجمال..

ثم استطرد وهو يعتدل فى مجلسه:

- هذه زراعة العرب الأصيلة. غير أنها تحتاج إلى تربة رملية.. إلى صحراء.

قال جابر بلهجة المقتدر:

- آتى لها بالرمل ولو حملته على رأسى.

انتشى الصدّيق لحماسه، فقال فى حبكة تمثيلية:

- لكنها تبطئ حتى تنبت.

سأله جابر فى قلق:

-والجاموس؟

أجاب الصدّيق مشجعا:

- سرعان ما ينبت.

قال جابر متفائلا:

- عظيم. أزرع الجاموس.

ثم تساءل كالمأخوذ:

- ولكن.. ما هى بذوره؟

قال المخادع، وهو يكتم ضحكه:

- الجبن القريش طبعا.

وعاد جابر يسأل:

- ومتى أبذرها؟

رد الصدّيق بثبات:

- إن زراعة الجاموس يا صاحبى ممكنة فى كل وقت. فإذا زرعته فى الربيع، نبت فى الصيف، وإذا زرعته فى الصيف، نبت فى الخريف، وإذا زرعته فى الخريف، نبت فى الشتاء، وإذا زرعته فى الشتاء، نبت فى الربيع.

* * *

وفى اليوم التالى، أسرع جابر إلى السوق، فاشترى خمسين قطعة من الجبن، وذهب بها إلى حقله، فزرعها بعناية على مسافات متساوية. ثم ذهب إلى صاحبه قائلا كتلميذ مجتهد:

- بذرت ياصدّيق البذور.

قال الصدّيق فى إعجاب كاذب:

- حياك الله.. ما هذا النشاط؟ هكذا تكون الهمة، وإلا فلا.

انشرح صدر جابر، وانبسطت أساريره. فتابع الصدّيق متهكما:

- بمثل ذلك يكون الفوز والفلاح.

ثم استطرد مشيرا بإصبعه:

- ولكن.. لا تنسنى عند الحصاد. فلى عندك مكافأة كبيرة.

قال جابر بامتنان:

- ياسلام. أنساك! إنك تستحق كل خير، وفضلك علىّ ما حييت.

لا ينكر المعروف إلا جاحد.

قال الصدّيق مشيحا بيده:

– دعك من هذه المجاملات، وقل لى: ما هى بالضبط مكافأتى؟

قال جابر مراوغا:

– كلى لك ياصدّيق.

اعترض الصدّيق قائلا:

– كسبنا صلاة النبى. لا سيدى. لا تأكل عقلى بالكلام.

قال جابر مستطلعا:

– اطلب ما تشاء.

قال الصدّيق مستمتعا بالموقف:

– عشر جاموسات.

استكثر جابر المطلب، فقال مرددا:

– عشر جاموسات!

قال الصدّيق مشترطا:

– إناث.

سايره جابر، وقد عقد العزم على أن ينكث بوعده قائلا:

– أمرك ياصدّيق.. الأمر لله. لكن قل لى: كيف يروى الجاموس؟

أجاب الخبيث:

– باللبن يا جابر.

شهق جابر قائلا:

– باللبن. يالغرامة! كم مرة؟

أجابه الصدّيق:

– مرة كل يومين.

قال جابر خائفا:

–والسماد؟

عاجله الصدّيق قائلا:

– بالقشدة.. مرتين.

روع جابر، فقال:

– لكن القشدة غالية جدا. من أين لى كل هذا؟

قال الصدّيق يحفزه:

– لا تنس أنك ستحصد ثروة.

* * *

وفعل جابر مخلصا ما أشار به صاحبه، وأخفى سره عن الناس، وكذلك فعل الصدّيق ليتم خدعته.

وذات يوم، سار جابر فى حقله مختالا يبشر نفسه بمحصول الجاموس، فاصطدمت قدمه بجذر قديم فى الأرض ظنه قرن جاموسة قد نبت، فصاح بجاموسته فى سعادة:

– أول الطرح نطح!

رقم الإيداع	٧٨٢٢ / ١٩٩١
الترقيم الدولى	١-٨-٠٥٠-١٠-٩٧٧